مقدمة تمهيدية

عن الرحلات السابقة إلى الدار الآخرة

لم يكن أبو العلاء المعرّىّ، فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، هو أول من قام برحلة طويلة إلى الدار الآخرة، فى رائعته الخالدة، رسالة الغفران..

ولم يكن دانتى أليجيرى Dante Alighieri كذلك هو ثانى من قام برحلته الرائعة إلى الدار الآخرة، فى رائعته الخالدة: الكوميديا الإلهية، مع القرن الرابع عشر، وبعد المعرى بثلاثة قرون.

إن المصريين القدماء، هم أول من عَبَروا الحياة الدنيا إلى ساحة الآخرة فى حياتهم، وأفكارهم وأعمالهم، حيث تصّوروا الفردوس بما فيه من نعيم، والجحيم بما تحتويه من عذاب.. وعندهم أوزيريس، راعى ميزان العدالة فى الآخرة وقاضى محكمة الجزاء الأولى. وفى ديانة «بابل» تهبط «عشتروت» إلى الجحيم، لتبعث «تاموز» إلى الحياة، وفى العقائد الهندية والفارسية القديمة، جحيم ومَطْهَرٌ وفردوس..

وفى التراث اليونانى القديم نشهد «هوميروس»، يرحل بنا مهاجراً إلى عالم الموتى والأبالسة، والأطهار، فى رائعتيه:

الإلياذة الأوديسة مع «أخيل» و«أوديسيوس»، كما نشهد «أرستوفانيس» فى ملهاته الخالدة: الضفادع ، مهاجراً إلى الدار الآخرة، ليبعث إلى الحياة الأرضية أحد الثلاثة الخالدين أيسخيلوس ويوربيديس وسوفوكليس، لإنقاذ الدراما اليونانية من الانهيار والضياع. . .

وفى التراث الرومانى، نجد «فرجيل» الشاعر العملاق مع نفس الرحلة، فى الإنيادة الخالدة .

فإذا وقفنا أمام ساحة الديانات السماوية الكبرى، وجدنا فى اليهودية مشاهد الدار الآخرة، مع أرض الظلام، والعذاب، وجنات النعيم. . وفى المسيحية نُشاهد معارج القديسين، ورؤى الصّديقين. . ثم نرى ونشاهد فى الإسلام صُوراً ومشاهد رائعة، لأولئك الـمُقرّبين، فى جنّات النعيم. . ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1]. ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾[2]. كما نشهد مكان الُمعذّبين من أهل الجحيم

(١) الآيات ١٥ - ٢٤ من سورة الواقعة.

(٢) الآيات ٢٨ ـ ٣٤ من سورة الواقعة.

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾[1]. . هناك عند شجرة الزقوم ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾[2]. ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾[3]. كما نجد مشاهد رائعة ومروّعة فى دراميتها لمشاهد ليلة الإسراء والمعراج، مع النبى محمد ﷺ وهو فى صحبة جبريل عليه السلام، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فى إسرائه ثم فى معراجه إلى سدرة المنتهى، حيث رأى من ربه الأعلى، بدائع آياته الكبرى ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[4]. هذه المشاهد التى أثارت الدهشة الكبرى، فى ساحة الفكر الفنى والأدبى والفلسفى، وفى حقل الفلسفة الصوفية والدراسات النفسية الصوفية بالذات، وتركت آثارها واضحة فى كثير من الأعمال الخالدة فى مختلف حقول الفنون والآداب العربية وغير العربية، شرقية وغربية على السواء.

---

(١) الآيات ٤٢ ـ ٤٤من سورة الواقعة.
(٢) الآيات ٦٤ ـ ٦٧ من سورة الصافات.
(٣) الآيات ٤٣ ـ ٤٩ من سورة الدخان.
(٤) الآيات ١ ـ ١٧ من سورة النجم

لكن العمل الضخم المتكامل فى عالم الفكر الإنسانى بوجه عام هو رحلة أبى العلاء ودانتى إلى الدار الآخرة مع رسالة الغفران والكوميديا الإلهية، وإذا كنا نتفق على أن هناك عملاً آخر متواضعاً[1] قدمه الحارث المحاسبى الصوفّى العالم، المتوفى سنة ٢٤٣هـ = ٨٥٧م، قبل المعرّى بقرنين كاملين، وذلك فى رسالته (التوهّم) التى تَخَيَّل أو توهم فيها، رحلة إلى العالم الآخر فى صور ساذجة أغلبها مقتبس من مشاهد ليلة الإسراء والمعراج.. أقول إذا كنا نعتبر هذا محاولة سابقة للمعرى ودانتى فإن العمل المتكامل حقاً، هو ما أبدعه بعبقرية ليس لها نظير، ذلك البصير العملاق أبو العلاء، وذلك البصير العملاق دانتى.. فى رحلتيهما الخالدين، إلى الدار الآخرة..

١٥ من المحرم ١٤١٧هـ الموافق أول يونيو سنة ١٩٩٦م.

أ.د: عبدالقادر محمود

(١) د. محمد على دقة : مجلة العربى (مقال) عدد ١٤٣ شهر شوال ١٤١٣هـ أبريل ١٩٩٣م.

obeikandl.com